الفصل الأول

معنى الخشوع

قال ابن القيم: قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (الحديد : ١٦)، قال ابن مسعود رضي الله عنه ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين. وقال ابن عباس إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرءان. وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون : ١، ٢).

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ (طه : ١٠٨)، أي سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالري والنبات؛ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ .

(فصلت : ٣٩)

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه. وقيل الخشوع الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع. فمن علامته: أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: الخشوع خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب. وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. ورأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**» (ضعفه الألباني)، وقال النبي ﷺ: «**التقوى هاهنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات**» (صحيح الجامع: ٦٧٠٦)، وقال بعضهم: حُسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلاً خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا، وأشار إلى صدره، لا هاهنا، وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم وهو حذيفة، يقول: إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع، ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك. ليس الخشوع في الرقاب. إنما الخشوع في القلوب. ورأت عائشة رضي الله عنها شباباً يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال أسمع. وإذا ضرب أوجع. وإذا أطعم أشبع. وكان هو الناسك حقاً. وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يُري الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

وقال حذيفة رضي الله عنه: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصلٍ لا خير فيه. ويوشك أن تدخل الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً. وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان (اهـ. من مدارج السالكين).

وقال ابن رجب: وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته أو سكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له، كما قال ﷺ: «**ألا أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» (متفقٌ عليه).

فإذا خشع القلب، خشع السمع والبصر والرأس، والوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام. ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «**خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي**» (رواه مسلم). وفي رواية: «**وما استقلت به قدمي**».

ورأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده في الصلاة فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**». ورُوي ذلك عن حذيفة رضي الله عنه وسعيد بن المسيب ويروى مرفوعاً لكن بإسناد لا يصح.

وعن أبي سنان عمن حدثه عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال:

«هو الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم، وأن لا تلتفت في صلاتك».

وقال عطاء بن السائب عن رجل عن علي رضي الله عنه: «الخشوع خشوع القلب وأن لا تلتفت يميناً ولا شمالاً».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال: «خائفون ساكنون».

وقال ابن شوذب عن الحسن رحمه الله تعالى: «كان الخشوع في قلوبهم فغضوا له البصر في الصلاة».

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد رحمه الله تعالى في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال: «متواضعين».

وقد وصف الله تعالى في كتابه الأرض بالخشوع فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٩) فاهتزازها وربوها ـ وهو ارتفاعها ـ مزيل لخشوعها، فدل على أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونها وانخفاضها.

فكذلك القلب إذا خشع، فإنه تسكن خواطره، وإراداته الرديئة التي تنشأ من اتباع الهوى. وينكسر، ويخضع لله فيزول بذلك ما كان فيه من التعاظم والترفع والتكبر، ومتى سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها، حتى الصوت وقد وصف الله تعالى الأصوات بالخشوع في قوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ (طه : ١٠٨) فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها.

وكذلك وصف وجوه الكفار، وأبصارهم يوم القيامة بالخشوع فدل ذلك على دخول الخشوع في هذه الأعضاء كلها.

ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه أو أطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه، كان ذلك خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه. كما قال بعضهم: «استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً

والقلب ليس بخاشع». ونظر عمر رضي الله عنه إلى شاب قد نكس رأسه، فقال له: «يا هذا ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب».

فمن أظهر خشوعاً غير ما في قلبه، فإنما هو نفاق على نفاق.

وأصل الخشوع الحاصل في القلب، إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف، فهو له أخشع. ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع.

ـ **فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده** واطلاعه على سره وضميره، المقتضي للاستحياء من الله تعالى، ومراقبته في الحركات والسكنات.

ـ **ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضي** للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته.

ـ ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه. وهو سبحانه وتعالى جابر المنكسرة قلوبهم من أجله.

وهو سبحانه وتعالى يتقرب ممن يناجيه في الصلاة ويعفر وجهه في التراب بالسجود، كما يتقرب من عباده الداعين له، السائلين له، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويجيب دعاءهم، ويعطيهم سؤلهم، ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والإجابة.

روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى في كتاب الزهد بإسناده عن عمران القصير قال: «قال موسى عليه السلام: أي رب: أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، إني أدنو منهم كل يوم باعاً فلولا ذلك لانهدموا».

وروى إبراهيم بن الجنيد رحمه الله تعالى في كتاب المحبة عن جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار قال موسى عليه السلام: «إلهي أين أبغيك؟ فأوحى الله تعالى إليه أن يا موسى ابغني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، فإني أدنو

منهم في كل يوم باعاً، ولولا ذلك لانهدموا» .. قال جعفر: فقلت لمالك بن دينار كيف المنكسرة قلوبهم؟ فقال: سألت الذي أقرأني الكتاب، فقال: سألت الذي سأل عبد الله بن سلام عن المنكسرة قلوبهم، بم تنكسر؟ قال: المنكسرة قلوبهم بحب الله عز وجل».

وقد جاء في السنة الصحيحة ما يشهد بقرب الله من القلب المنكسر ببلائه، الصابر على قضائه، والراضي بذلك، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني؟ قال: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده**» (أ. هـ . من رسالة الخشوع لابن رجب).

فائدة :

قال ابن القيم: «والناس في الصلاة على مراتب خمس:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه في مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيءٌ منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل، ناظراً بقلبه إليه مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته

كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين الغافل في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفَّر عنه، والرابع مُثاب، والخامس مُقرب من ربه» أ. هـ .